بعض مشكلات الفكر الاغريقي قبل سقراط وأثرها في مجرى الفلسفة اليونانية

الأستاذ المساعد
مها عيسى العبدالله
جامعة البصرة – كلية الآداب

بعض مشكلات الفكر الاغريقي قبل سقراط وأثرها في مجرى الفلسفة اليونانية

الأستاذ المساعد

مها عيسى العبدالله

جامعة البصرة – كلية الآداب

الملخص :

في هذه الدراسة محاولة لمعرفة مدى الارتباط والتناغم بين أفكار المفكرين والفلاسفة الاغريق في مراحل تاريخية متتابعة ومختلفة مر بها المجتمع الاغريقي . تمت في هذه الدراسة مناقشة بعض المشكلات الفلسفية التي أبرزها المفكرون والفلاسفة الاغريق قبل ظهور سقراط ، من أجل معرفة أثر هؤلاء المفكرين والفلاسفة في المنحى العام للفلسفة اليونانية ، في مراحل مختلفة من تاريخ الفكر اليوناني .

حاولت هذه الدراسة تسليط مزيد من الضوء على مشكلة بدء الوجود التي شغلت مساحة كبيرة من جهود المفكرين والفلاسفة وظهرت بوادرها في الفكر الاسطوري وعكست رؤاهم للكون والحياة والمجتمع

ما يلفت الانتباه في الفكر الاغريقي – اضافة لما عرف به من أصالة وعمق وجمال – هذا التناغم بين أفكار المفكرين والفلاسفة الاغريق عبر مراحل تاريخية مختلفة ، مرَّ بها المجتمع الاغريقي ، فكرياً وسياسياً واجتماعياً . وربما يعود هذا التناغم لمسألتين أولاهما أن الموروث الاغريقي كان بالغ الخصوبة والغنى ، أنجب مفكرين كباراً استطاعوا أن يُبدعوا فكراً رصيناً فرض وجوده على من جاءوا بعده . والمسألة الثانية هي أن المفكرين الاغريق قد وعوا عمق موروثهم الفكري ورصانته ، فحاولوا أن ينهلوا منه وتتلمذوا عليه ، ومن ثم حاولوا الحفاظ عليه واستمراره .

لقد ناقش المفكرون الاغريق بمن فيهم الفلاسفة الذين وجدوا قبل سقراط جملة من المشكلات التي نالت اهتمامهم ، وعكست رؤيتهم للكون والانسان والحياة . ومنها مشكلة بدء الوجود أو نشأة الكون التي نحاول تسليط الضوء عليها ، لنرى كيف أثر المفكرون والفلاسفة – الذين تناولوها – قبل سقراط على الفلسفة اليونانية التي اعقبتهم . لم تبدِ هذه المشكلة مع الفلسفة في القرن السادس (ق. م) . إذ أن بداياتها الاولى كانت مع التفكير الاسطوري الذي تجسد في شعر الشعراء كما سنلاحظ ذلك .

ونود ان ننوه هنا إننا لسنا بصدد تقديم عرض تاريخي مُفصل لجميع الآراء التي طرحت سواءاً أكانت للشعراء أم للفلاسفة ، بل سنختار بعضاً من تلك الآراء التي تعيننا على الكشف عن مدى تأثيرها بالفلسفة التي اعقبتها ، وبما ينسجم مع موضوع بحثنا .

تُطلعنا المصادر المتوفرة لدينا حول الفكر الاغريقي عن مدى اهتمام المفكر الاغريقي بعالمه الذي هو جزءٌ منه ، فما تركه لنا من آثار فكرية تؤرخ تجربته ، وتعكس لنا عمق المشكلات التي لفتت انتباهه ، وحظيت باهتمامه ، ومنها بحثه في مشكلة بدء الوجود .

مشكلة بدء الوجود أو نشأة الكون :

شغل موضوع بدء الوجود حيزاً كبيراً من الفكر الاغريقي منذ بداياته الاولى ، والتي تمثلت بصورة واسعة بنتاج الشعراء . وفي هذا المجال يعد هزيود أبرز الشعراء الذين عرضوا لهذه المشكلة ، لذا سنبدأ بحثنا معه .

اولاً : هزيود

تميز بحث هزيود في مشكلة بدء الوجود بالترتيب والنظام لتسلسل الآلهة ، كما نجد لديه التبرير لكل ما يحدث من تغير في سلسلة تكّون الموجودات ، فهناك سبب لكل ما يحدث . هذا ما نجده واضحاً في منظومته الثيوجونيا (Theogonia) ، التي قدم بها تسلسلاً تاريخياً لنسب الآلهة . فهي كما يرى ظهرت بسلسلة متتالية من الولادات . فالولادة بالنسبة له هي الشكل المثالي للمجئ الى الوجود [١] .

حاول هزيود أن يقدم لنا تصوراً عقلياً لنشأة الموجودات فظهورها لم يكن دفعةً واحدةً بل جاء في سلسلة متعاقبة ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فأن نشأة الموجودات المختلفة لم يكن اصلها واحداً ، هذا ما نراه في تفاصيل عملية الخلق كما قدمها لنا مؤكداً في البداية على وجود ثلاثة موجودات هي خاوس والارض وإروس[٢] .

يمثل الخاوس (chaos) الظلام والفراغ بلا حدود ، فهو ما كان موجوداً قبل خلق الكون ، وهو الإله الذي يجسد المكان غير المحدد ، والهيولى التي لا شكل لها ، التي سبقت الخلق [٣] .

ثم نشأ من خاوس أريبوس (Erebus) الظلام (ويمثل الذكر) واخته ربة الليل نيكس (Nyx) (وتمثل الانثى) من اجتماعهما بدافع الحب خرج أيثر والنهار [٤] خروج الليل والنهار إشارة لولادة الزمان، فقد بدأ هزيود حديثه عن نشأن الكون بتحديد المكان والزمان الضروريان ، أحدهما لإيواء الموجدات والآخر ، لتدوين تاريخ حياتها .

بعد أن حدد هزيود عناصر نشأة الوجود وهي خاوس (chaos) والارض (Gaia) وإروس (Eros) – والتي لم يبين لنا كيف وجدت – نراه يتدرج بخروج الموجودات للوجود ، فيطرح أولاً فكرة الآلية ثم فكرة الولادة . فخروج الليل من خاوس تم بصورة آلية ، ومنه ولد النهار ، باجتماعه مع اخته ربة الليل بقوة الحب (إروس) . وهذا ما نراه ايضاً مع الارض (Gaia) التي أخرجت السماء المرصعة بالنجوم (أورانوس) (ouranos) ، مساوية لها لتطوقها من كل جانب ، ولتصبح مقراً آمناً للآلهة المباركة للأبد . كما أنجبت التلال والبحر بونتوس (Pontos) [٥] .

تقسيم العالم الى ثلاثة أقسام يبدو واضحاً في نشأة الكون ، فهذا ما نجده تماماً عند هوميروس ((كل الأشياء قسمت الى ثلاثة)) ، وهذه العوالم الثلاثة نسبت الى زيوس (Zeus) وبوزيدون (Poseidon) وهادس (Hades) السماء المرصعة بالنجوم لزيوس ، والبحر لبوزيدون وهادس للموتى [٦] . كما

نرى ان الموجودات خرجت للوجود بصورة آلية ، لتأتي بعدها مرحلة الولادة . فبعد خروج السماء من الارض يجتمعان في الزواج بعاطفة الحب (اروس) ، لينتج من هذا الزواج ولادة الآلهة الكبار [٧] .

يأخذ هزيود في هذه المرحلة بعرض مشهد الولادات المتعاقبة ، حيث تلد الارض للسماء ثلاثة مجاميع من المخلوقات العظيمة المتفاوتة في قوتها وهي :

أولاً : تلد التيتان (Titans) الذين يمثلون العنف في الطبيعة ، وكان أصغرهم وأقواهم كرونوس ، الذي يكره أباه لشتهوانيته [٨] . هؤلاء التيتان (الاثنا عشر) جميعاً قاموا بخلع أبيهم أورانوس عن عرشه ليصبح كرونوس ملكاً عليهم ، وريا (اخته وزوجته) ملكة عليهم [٩] .

ثانياً : تلد الارض السيكلوب (cyclopes) المتغطرسين هؤلاء كانوا يمدون زيوس بالرعد ويصنعون له الصواعق ، وهم يشبهون الآلهة في كل شيء ، عدا جباههم كانت تتوسطها عين واحدة [١٠] .

ثالثاً : وأخيراً تنجب الارض للسماء أقوى وأعنف الأبناء ، هم ثلاثة أبناء عرفوا بـ (الهيكاتونكيرس) (Hecatnchires) لكل واحد منهم مائة يد وخمسين رأس ، وكانت قوتهم لا تقاوم ، كما انهم اكثر أبناء الارض والسماء بشاعةً ، لذا كان أبوهم (السماء) كلما ولد أحدهم (السيكلوب والهيكاتونكيرس) خبئه في مكان خفي تحت الارض ، مما جعل الارض (أمهم) تئن وتتوجع لذا فكرت بمكيدة للتخلص منه ، وقد تم لها ذلك بمساعدة إبنها كرونوس الذي قام بقطع أعضاء أبيه [١١] . بهذا أجبر كرونوس أبوه اورانوس (السماء) بالتخلي عن عرش الكون له ، ليبدأ العصر الثاني ، عصر كرونوس الذي ينجب فيه من ريا (اخته) عدداً من الأبناء هم جستيا وديميترا ، وهيرا ، وهاديس ، وزيوس العاقل والد الآلهة والبشر . إلا انه يبتلع أبناءه جميعاً عند ولادتهم خوفاً من أن يحتل أي منهم مركزه ، إذ تنبأت له الأرض والسماء بانه سيغلب على أمره رغم قوته وبأسه بيد أحد أبنائه وبتدبير من زيوس [١٢] .

إن قيام كرونوس بابتلاع أبنائه آلم ريا وأحزنها فلجأت الى والديها الأرض والسماء عندما اقتربت ولادتها لزيوس والد (الآلهة والبشر) ، ليدبرا لها خطة لاخفاء زيوس وإنزال العقاب بكرونوس ، لما اقترفه من عمل سيء ضد أبيه وبنيه . فلبيا طلبها ، وحينما أوشكت ريا على ولادة زيوس أرسلا لها الى ليكتوس الى كريت حيث أخذت الأرض زيوس من ريا لتربيته ، وعادت ريا لتقدم لكرونوس حجراً ملفوفاً في قماطة ليبتلعه. وبهذا أنقذت ريا زيوس والد الآلهة والبشر[١٣] .

لقد تم القضاء على أورانوس (السماء) بسبب قسوته بوضع أبنائه تحت الأرض ، وكره ابنه كرونوس له بسبب شهوته ، وبهذا انتهت الصلة المباشرة بين السماء والارض التي امتلئ قلبها بالحزن على أبنائها . ويتكرر ذلك المشهد بين كرونوس وريا التي امتلئ قلبها بالحزن أيضاً بسبب ابتلاع كرونوس لأبنائها . بهذا الفعل يبرر لنا هزيود قطع الصلة بين جايا (الأرض) وأورانوس (السماء) وكرونوس وريا –

التي تمثل كل منهما مرحلة من مراحل نشأة الكون – بسبب القسوة والظلم الذي يصدر من الذكر . كما يكشف لنا هزيود وسيلة الانثى بالخلاص من ظلم الذكر عن طريق الكيد والخداع ، إذ تخلصت جايا من السماء بمساعدة ابنها كرونوس وكيدها ، وتخلصت ريا من كرونوس بمساعدة والديها الارض والسماء اللذين دبرا لها خطة لإخفاء ابنها زيوس ، ثم بمساعدة ابنها زيوس ، حيث يهزم أباه كرونوس .

يبدو مشهد تسلسل الولادات – لبدء الوجود – كما عرضه هزيود محكم بفكرة السببية ، فهي تعكس لنا عقلانية هزيود في تبرير كل ما يحدث بهذا الكون من جانب . كما يعكس ما عرضه هزيود الوحدة والانسجام بين جميع مراحل تكّون الكون المختلفة ، فهزيود يبدأ أولاً بتهيئة المكان المتمثل بالفراغ (chaos) ثم الزمان المتمثل بالليل والنهار، بعدها يأتي بالارض والسماء الخارجة منها ، ومن اجتماع الارض والسماء تخرج موجودات تمثل القوة التي تجسدت بـ (التيتان) (Titans) ثم السيكلوب (cyclopes) وأخيراً الهيكاتونكيرس (Hecatonchires) الاقوى بين أولاد أورانوس وجايا .

لقد أوجد هزيود المخلوقات القوية لينهي بكل منها مرحلة من مراحل تكّون الكون ، إذ يستعين بالتيتان للقضاء على عهد أورانوس ، ثم يستعين بـ (السيكلوب) و بـ (الهيكاتونكيرس) للقضاء على كرونوس وانهاء عهده . ليبدأ عصر زيوس والد الآلهة والبشر .

يعبر هذا الصراع عن مراحل تكّون الوجود ، فالصراع الأول بين اورانوس (السماء) ، وزوجته جايا (الارض) وأبنائه التيتان ، هو صراع بين الظلم والقوة التي تنتصر على الظلم لكنها لا تحقق العدالة . وربما أراد هزيود بهذا الاشارة لعدم اكتمال الكون بعد وليستمر الصراع بين كرونوس واخوته (السيكلوب والهيكاتونكيرس) وأبنائه الذين لفظهم وبعد الانتصار على كرونوس وجميع (التيتان) ، يعود زيوس ليخوض حرباً جديدة مع الوحش تيفويوس ، ابن الارض وترتاروس ، الذي اتسم بالقوة ، فكان تنيناً مخيفاً وكاد يهيمن على البشر والآلهة ، لولا حكمة زيوس ، بالقضاء عليه ، حينما أمسك ذراعي الوحش ، فامسك الرعد والبرق والصواعق التي ارسلها . وتم القضاء عليه بحرق جميع رؤسه من قبل زيوس – وهي مائة رأس ثعبانية كانت تنمو على أكتافه – وبانتهاء الحرب اضطرت الآلهة زيوس بايعاز من الأرض الى أن يحكم بينهم ويقسم المراكز بينهم [١٤] .

ينتهي الصراع في المرحلة الثالثة من مراحل نشأة الكون بتولي زيوس الحكم . ويبرر هزيود ذلك بعدالة زيوس الذي أنقذ أبناء الارض أخوة كرونوس واخوته من ريا .

توقف الصراع يشير لنهاية مراحل تشكل الكون والتي انتهت بالبشر الذين ولدوا من زيوس . هذا أن هزيود قد هيأ للبشر كل شيء قبل مجيئهم : المكان والزمان والأرض والسماء والبحر والهواء ، وجميع ما يحتاجون له . كما أوجد لهم الآلهة التي يعبدونها والمتمثلة بزيوس كبير الآلهة . ولتستمر بعد ذلك سلسلة الولادات بين الآلهة والآلهة ، وبين الآلهة والبشر ، وبين البشر أنفسهم .

كما يبدو هناك نسق – يتمثل بالتقسيم الثلاثي – فرض هيمنته على جميع تفاصيل نشأة الوجود . تمثلت فيه بداية نشأة الكون بالأجزاء الثلاثة ، الخاوس ، والأرض واروس . جسدت الأرض والسماء والبحر أجزاء العالم . كما تمثلت مراحل الكون بثلاثة عصور ، وهي : عصر أورانوس ، وعصر كرونوس ، وأخيراً عصر زيوس . هذا يعني أن هزيود جعل التقسيم الثلاثي أقدم في الزمان من الآلهة . أي أن البحث عن نشأة الكون أقدم من البحث عن أصل الآلهة [١٥] . صحيح أن عنوان الكتاب (الثيوجونيا) يدل على البحث عن أصل الآلهة ، لكن كما رأينا أن البحث عن نشأة الوجود كان واضحاً ومختمراً في تصور هزيود وقد تجسد ذلك الوضوح والنضوج بالوحدة والانسجام والنظام في تتابع سلسلة نشأة الموجودات . كما أن البحث عن نشأة الوجود كان الأكثر خصوبة في ما طرحه هزيود حول فكرة الآلية والسببية والقوة التي تمثلت بـ (اروس) ، إضافة لفكرة خروج الموجودات من أضدادها ، كما لاحظنا ذلك بخروج النهار من الليل ، أو النور من الظلام .

ما قدمه هوميروس وهزيود من تصور حول بدء الوجود ، كان حافزاً لمن جاءوا بعدهما – بصورة خاصة الفلاسفة – على البحث في هذا الموضوع ، بينما لا نرى البحث عن الآلهة إلا نادراً . ربما يعود هذا الى أن ما قدمه هوميروس وهزيود من تصور عن الإلهة وعالمهم قد أجاب عن الأسئلة التي شغلت ذهن المفكر الاغريقي بشأن الآلهة ، وأشبع فضوله لمعرفتها ، ورسغ قناعاته بها . رغم أن ما قدمه هوميروس وهزيود عن الآلهة لم يسلم من النقد . على سبيل المثال كالنقد الذي وجهه اكسانوفان لما قدمه هوميروس وهزيود عن الآلهة ، فجاء نقده لأفكارهما لاذعاً ساخراً حينما خاطب الاثينيين ساخراً بقوله أن الثيران والخيول أو الأسود ، لو كانت تمتلك أيادي ، لكان بامكانها ان تصور لها آلهة شبيهة بها ، لتصبح آلهة الخيول على صورتها ، وآلهة الثيران على صورتها ، كما فعل البشر بتصوير آلهتهم على صورهم [١٦] .

لقد استمر البحث في نشأة الوجود بعد هوميروس وهزيود مستغرقاً جانباً كبيراً من الفلسفة اليونانية عبر مراحل تاريخها المختلفة . وهذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه مع الفلسفات التي سبقت ظهور سقراط ، نركز بصورة خاصة على المدرسة الأيونية (التي نادت بأصلٍ واحداً للوجود) ومدرسة الكثرة أو التعدد (التي قالت باصول متعددة) . ثم نحاول الكشف عن تأثيرها على مجرى الفلسفة اليونانية بعد سقراط ، وبصورة خاصة سنركز على أفلاطون والأبيقورية والرواقية ، بما ينسجم مع موضوع البحث ، ويسهم في ايضاح الفكرة الرئيسة منه .

ثانياً : المدرسة الأيونية (مدرسة الوحدة)

جاء اختيارنا لهذه المدرسة أولاً لأن تاريخ الفلسفة كما أكد معظم الباحثين بدء مع الفيلسوف طاليس[١٧] . وثانياً لأن هذه المدرسة ركزت اهتمامها على البحث في بدء الوجود ، فحاول فلاسفتها رده

الى أصل واحد ، وقد اختلفوا في هذا الأصل ، كما سنرى ذلك . فبحثهم في هذا الموضوع ينسجم مع ما بدأنا فيه مع هزيود ، ولنتعرف من خلال ذلك على أصالة بحثها ، أجاء امتداداً لما بدأه هوميروس وهزيود ، أم كان شكل بحثها نقطة انطلاق جديدة لما بدأه هوميروس وهزيود ؟ وثالثاً : أن هذه المدرسة قدمت رؤية خاصة للمادة ، التي فسرت بها أصل الوجود . أي أن المادة أصبحت هي موضوع دراسة فلاسفة المدرسة الأيونية . فهي تمثل نقطة البداية لجميع من جاءوا بعدها ، سواء اتفقت آراؤهم معها أم اختلفت . ورابعاً : فأن أصالة فلاسفتها التي تمثلت باختلاف آرائهم ، ونقد بعضهم لبعض ، وهذا يشير الى الاخلاص في البحث من جانب ، وعدم بروز رؤية تامة يتفق عليها الجميع بشأن بدء الوجود ، كما سنرى ذلك مع الفلاسفة الثلاثة الذين سنتناولهم وهم : طاليس ، وانكسيماندر ، وهرقليطس .

١ – طاليس : (Thales)

شغل عالم الآلهة والانسان تفكير المفكرين ، وتجلى ذلك بصورة واضحة مع شعراء الآساطير والملاحم ، وبصورة خاصة مع هوميروس في الالياذة والاوديسة ، التي عكست لنا تفاصيل كثيرة عن الآلهة وحياتهم وصلاتهم بعضهم ببعض ، وصلاتهم مع البشر . كما عكست لنا تفاصيل كثيرة عن حياة البشر : بطولاتهم ، وقيمهم ، ما يحبون ، وما يكرهون ، وكيف يعبرون عن كل ذلك . ونجد ذلك أيضاً مع هزيود . صحيح انهما (هوميروس وهزيود) قد بحثا وبصورة خاصة هزيود – كما أوضحنا – عن بدء الوجود الا أن بحثهم لم يتوجه للطبيعة فينظر لها ذاتها ، بمعزل عن عالمي الآلهة والانسان .

لقد بدء النظر الى الطبيعة مع فلاسفة المدرسة الأيونية ، فكان طاليس أول من دشن الاهتمام بالطبيعة لذاتها ، وكما يقول نيتشه : ((إن الاغريق الذين استطاع طاليس وسطهم أن يسترعي فجأة الانتباه ، هم بذلك نقيض للمفكرين الواقعيين ، فهم كانوا لا يؤمنون فعلاً إلا بحقيقة الانسان والآلهة ، ولم تكن الطبيعة بنظرهم سوى لباس تنكر ، تهريج وتحول لهذا الانسان – الإله)) [١٨] .

انتقال البحث مع طاليس لعالم الطبيعة يعني أنها أصبحت مركز اهتمام الفلاسفة ، لمعرفة ما يكمن خلفها من مظاهر متنوعة ، تكشف لنا كيف ابتدأ الوجود . وكما تغير مركز البحث من الآلهة والانسان الى الطبيعة ، فقد تغيرت كذلك طرائق تفسير بدء الوجود ، فبدلاً من أسليب السرد المفعمة بالخيال ، برزت البراهين والأدلة العقلية . صحيح أن الفلاسفة اليونانيين قد وجهوا همهم – كما فعل هوميروس وهزيود – نحو مشكلة الأصل والتكوين ، إلا ان بحثهم لهذه المشكلة اكتسب صيغةً جديدة ، فهم لم يفهموها من مصطلحات أسطورية [١٩] . كما يشير نيتشه الى أن الحقيقة الاكثر تجريداً لدى الاغريق كانت تتجسد باستمرار في شخص معين ، إلا أن طاليس قال ((إن الماء هو حقيقة الأشياء وليس الانسان)) فبدأ يؤمن بالطبيعة إيمانه بالماء [٢٠] . أي أن طاليس وجد أن ضالته بمعرفة مبدأ الوجود تكمن في الطبيعة ويتجسد ذلك بالماء . ومن هنا فقد أكد طاليس أن الماء هو حقيقة الاشياء كلها ، فهو العنصر الأول الأوحد

الذي تعود اليه الأشياء كلها . فأصل الأشياء إذن كامن في العالم ذاته لا خارجه وهو شيء مادي ملموس[٢١] .

أما لماذا فكر طاليس بأن الماء هو أصل الأشياء جميعاً ، وما أهمية ذلك ؟ يشير أرسطو طاليس ، ان الماء هو هو المبدأ الاول لدى طاليس والسبب ذي ذلك أن طاليس أعلن ان الارض تطفو على الماء ، ربما يكون توصل لفكرة ان الماء هو أصل الأشياء من خلال ملاحظته أن كل الاشياء تتغذى على الرطوبة ، حتى الحرارة هي أيضاً تتولد من الرطوبة وتحيا بها (فما تأتي منه الاشياء يكون هو مبدأ جميع الاشياء) . كما توصل لهذه الفكرة من حقيقة أن بذور كل الأشياء رطبة بطبيعتها ، وان الماء هو الأصل لطبيعة الاشياء الرطبة [٢٢] .

اما أهمية قول طاليس ان الماء هو أصل الأشياء ، كما يرى وولتر ستيس ان قول طاليس الماء أصل الأشياء لا قيمة له بذاته ، بل لأن ما قاله كان أول محاولة مسجلة لشرح الكون وفق مبادئ طبيعية وعلمية ، من غير الاستعانة بالأساطير والإلهة ذات الصبغة الانسانية اضافة لذلك فقد حدد طاليس بطرحه لهذه المشكلة اتجاه الفلسفة وطابعها السابق المميز على سقراط [٢٣] .

محاولة طاليس البحث عن مبدأ أول وواحد يكمن وراء الكثرة في العالم هو الماء وردها اليه ، لم يحسم هذه المشكلة ، فأغلب الفلاسفة الذين جاءوا بعده خاضوا في الموضوع ذاته ، فجاءت بحوثهم تأكيداً لرؤية طاليس أن المبدأ الاول لبدء الوجود كامن فيه ، وان خالفوه في ذلك المبدأ . فطاليس يمثل نقطة بداية بزغ معها التفكير الفلسفي باتجاه بدء طريقة جديدة لمعرفة حقيقة أصل الوجود ، في خلاف لما عرفته البشرية من طرائق التفكير الذي عرفته الخرافات والأساطير وغيرها .

جاء تفسير طاليس لأصل الوجود في غاية الوضوح والبساطة فهو لم يأتِ بشيء خارج عن الطبيعة غير مألوف لنا . فلا فوارق تميز الماء عن الموجودات ، سوى انه المبدأ الأول الذي منه تأتي واليه تعود . هذه الرؤية البسيطة الواضحة سوف نراها تصبح أكثر تعقيداً وغموضاً مع من جاءوا بعده كما سنرى ذلك .

٢ – انكسيماندر : (Anaximander)

يقدم لنا أنكسيماندر رؤيته الخاصة لبدء الوجود ، التي يتفق بها مع طاليس في كون المبدأ الاول هو واحد ومادي . الا انه يخالفه فيه ، فهو كما يقول ليس ماءً ولا أي عنصر من العناصر الاخرى التي نعرفها ، فهو جوهرمختلف عنها ، فهو لا متناهٍ تظهر عنه السماوات والعوالم كلها . فهو خالد أزلي ، ومتضمناً للعوالم كلها [٢٤] . كما ان جميع الأشياء التي تخرج منه تعود اليه ايضاً عند هلاكها [٢٥] . أراد انكسيماندرا باختياره اللامتناهي مبدأً لبدء الوجود أن يكون مناسباً لفكرة كونه المبدأ الاول . لذا أضفى عليه سمات الكمال ، فهو أزلي ، أبدي ، وربما لهذا السبب رفض ان يكون الماء مبدأً اولياً لبدء الوجود

، فالماء كما يبرر أنكسماندر هو استحالة الجامد (البارد) الى سائل بالحرارة ، مما يعني أن الحار والبارد سابقان عليه [٢٦] .

حاول انكسيماندر بطرح فكرة اللامتناهي أن يقدم تفسيراً فلسفياً لفكرة أن من الممكن أن يكون هناك اختلاف أو تمايز بين الجوهر والصفة تماماً كحديثه عن اللانهائي الذي صنف فيه المتضادات الى مادة وصفة كالحار والبارد والرطب والجاف . هذه المتضادات كما يقول ((كورنفورد)) بالنسبة لانكسيماندر هي ليست كيفيات بل هي أشياء، فالحار هو ليس الحرارة [٢٧] أي أن أنكسيماندر ميز المتضادات عن صفاتها باعتبارها أشياء مستقلة ، كما ميز المبدأ الأول عن الموجودات الخارجة عنه .

يمثل الأبيرون (apeiron) المبدأ الاول الذي تكونت منه العوالم المختلفة بعد انفصال المتضادات منه . أما كيف تكونت من وجهة نظر انكسيماندر فيشير (برنت) (Burnet) أن انكسيماندر كان مغرماً بالتعارض والنزاع بين الاشياء ، وبفضل ذلك النزاع يتكون العالم ، حيث تتشكل المتضادات في أزواج متضادة ، فالنار حارة وهي تضاد الهواء البارد والارض (التراب) جاف يضاد الماء الرطب . وهذه المتضادات في حالة حرب وأي غلبة لأي واحد منها على الاخر يكون ذلك ظلم أو تجاوز لذلك يجب ان يعوض أحدهما الاخر [٢٨] .

يشرح برتراندرسل ذلك بقوله أن الفكرة التي أراد أنكسيماندر التعبير عنها هي أن يكون هناك نسبة معينة من النار والتراب والماء في العالم . لكن كل عنصر من هذه العناصر (وقد تخيلها آلهة) لا يكل عن السعي لتوسيع رقعة ملكه ، وذلك بتجاوزه على العناصر الاخرى . لكن يحد من ذلك التجاوز الضرورة أو القانون الطبيعي ، فهو يعمل باستمرار على حفظ التوازن ، فالعدالة هنا تعني عدم التجاوز [٢٩] .

بانفصال المتضادات عن بعضها تصبح محدودة ، وربما أراد انكسيماندر بهذا الإشارة الى أن الموجودات التي سوف تتكون منها لن تكون خالدة ، فعندما تهلك تعود لما كانت عليه . ويشير برتراندرسل أن أنكسيماندر تحدث عن ذلك بقوله : ((إن هذه العناصر المعروفة لنا يعارض بعضها بعضاً ... فلو كان أحد هذه العناصر لا نهائياً ، لزالت العناصر الباقية قبل اليوم [٣٠] . الصراع الذي أنكره انكسيماندر بحجة الحفاظ على العناصر جميعها خوفاً من هيمنة أحدها على بقية العناصر الاخرى ، لا يحدث باجتماع المتضادات (الأبيرون) ، وهو يحدث عند تفرقها ، كما أن هذا الصراع هو سبب لتعود المتضادات الى اللامتناهي مرة اخرى بعد هلاكها .

انفصال المتضادات اذن هو سبب لتكون الموجودات وهلاكها هو ايضاً سبب لعودتها لما صدرت عنه .

لقد تكونت العوالم بعد انفصال الحار والبار بفعل حركة اللامتناهي التي كانت سبباً لانفصال المتضادات أولاً ، ونشأة الموجودات ثانياً . فالعالم في رأي هذا الفيلسوف لم يخلق كما يشير برتراندرسل بل تطور عن تلك العناصر (المتضادات) ، فنشأت الكائنات الحية من العنصر الرطب ، عندما أخذت

الشمس تبخره ، وتطور الانسان عن الأسماك ، إذ كان من الصعب بقاؤه واستمرار وجوده على صورته الحاضرة بسبب طفولته [٣١] . لقد تطورت الكائنات الحية عن كائنات أدنى منها مرتبة بصورة تدريجية الى أجهزة عضوية ، نتيجة تكيفها مع البيئة [٣٢] .

ما طرحه انكسيماندر ببروز الكثرة من الوحدة انها قد تطورت عن عنصرين هما الحار والبارد ، وهذا يعني ان انكسيماندر قد فصل بين الموجودات التي تتطور عن الحار والتي تطورت عن البارد ، وهذا مخالف لرأي طاليس فجميع الموجودات تخرج من الماء ، عن طريق ما يمر به الماء من تحولات بقلة وازدياد تكاثفه . وعلى هذا الأساس تتمايز الموجودات .

خروج العوالم المختلفة للوجود وتطورها بدورات منتظمة مستمرة للابد،تبدأ من الأبيرون ، الذي تخرج منه ، لتعود اليه مرة اخرى عند هلاكها وهكذا .

ان رؤية انكسيماندر حول هذه المسألة كما يشير وولترستيس غامضة ، إذ ليس لديه شيء محدد يطرحه ، فالمادة اللامتناهية اللامحدودة تنفصل عن طريق عملية متصورة غامضة ، لتتحول الى الحار والبارد [٣٣] .

صحيح أن طاليس تتصف رؤيته بالبساطة والوضوح ، فالمادة التي حاول أن يفسر بها كيف تتكون الموجودات هي مادية ، مألوفة ، لا غموض فيها . الا أن رؤية انكسيماندر لتفسير بدء الوجود جاءت أبعد عن العلم وأقرب الى الفلسفة . ففكرة اللامتناهي هي فكرة مجردة تطرح مسألتي التكامل والانسجام الذي حققه بجمع المتضادات المختلفة بوحدة واحدة ، ثم عاد وفرقها ، لتعود بعد افتراقها لوحدتها الاولى وهكذا للابد . هذا يعني أن انكسيماندر جعل لمادته (الأبيرون) نظاماً خاصاً بها يضمن لها استمرار بقائها .

ان مجرد التفكير بامكانية توحيد المتضادات المختلفة بوحدة يسودها الانسجام ، مع امكانية تفرقها دون ان يضر ذلك بنظام وحدتها ، فهي تعود لها عند فنائها ، وهنا يغدو التفكير أكثر تجريداً وعمقاً . أي انه أقرب للفلسفة منه الى العلم .

٤ – هرقليطس (Heracleitus)

نعلم أن هناك اختلافاً بين المفكرين والفلاسفة بشأن فلسفة هرقليطس ، أهي امتداد للفلسفة الأيونية ، أم انها فلسفة مستقلة لا تنتمي لها ؟ ونحن لسنا معنين هنا بهذا الاختلاف . لأن اختيارنا لهرقليطس جاء بسبب انه أحد الفلاسفة الذين حاولوا تفسير أصل الوجود برده الى عنصر واحد ، وهو كما نعرف اعتبر المبدأ الأول عنصراً مادياً وهو النار . وكما يشير (فولر) (Fuller) أن هرقليطس شأنه شأن الملطيين في اعتباره العالم مادة ، وهو مثل اكزانوفان في اعتباره العالم الهياً [٣٤] . هذه اشارة الى أن هرقليطس قريب من المدرسة الايونية والمدرسة الايلية ، اي انه جمع بين ما هو مادي وما هو روحي .

اعتبر هرقليطس النار هي المبدأ الأول لبدء الوجود ، منها يخرج كل شيء ، فكل شيء – مثل لهب النار – يولد بموت غيره [٣٥] .

تمثل النار جوهر فلسفة هرقليطس ، فمنها انطلق لتفسير أصل الوجود ، واتخذها مبدأً أولياً له . فحولها يتمركز كل شيء ، الحياة والموت ، النزاع بين المتضادات ، والتغير المستمر الأبدي . فكل شيء يتغير سوى التغير ذاته .

وكما تمثل النار كل شيء ، فان كل شيء يمثلها أيضاً ، كما يرى هرقليطس فالكل يأتي من الواحد والواحد يأتي من الكل ، الله هو النهار والليل ، الصيف والشتاء ، الحرب والسلام ، الشبع والفاقة ، أن هذا الجوهر كما يرى هرقليطس هو النار [٣٦] . كما يبدو ان هناك في العالم وحدة ، لكن هذه الوحدة مؤلفة من اجتماع الأضداد [٣٧] .

كل ما هو موجود في العالم يحمل ضده ، وهذه الأضداد في حالة صراع دائم ، فالنزاع هو حقيقة العالم ، هو أبو الأشياء وملكها [٣٨] . الصراع هو أساس استمرار التغير الذي آمن به هرقليطس ، وبزوال هذا النزاع يفنى كل شيء . فالتغير هو صراع بين الأضداد ليحل بعضها محل بعض [٣٩] . كما يبدو أن هذا الشقاق هو سبب وجود الأشياء . لذلك يرى هرقليطس أن الصراع بين الاضداد هو عام وهو عدل [٤٠] .

كما يبدو فأن هرقليطس يختلف عن انكسيماندر بنظرته للنزاع لأن أنكسيماندر يرى ان فناء المتضادات بسبب النزاع هو تكفير لها عن ظلمها بتجاوزها على غيرها هو فكرة اسطورية . في حين يشكل النزاع لدى هرقليطس مبدأً رئيساً لاستمرار كل شيء . فهو كما يقول عنه النار تحيا موت الهواء ، والهواء يحيا موت النار، والماء يحيا موت التراب ، والتراب يحيا موت الماء [٤١] . فكما أن النزاع هو سبب وجود الاشياء فهو كذلك سبب فنائها أيضاً ، لتعود مرة اخرى للنار .

أن كل شيء كما يرى هرقليطس في هذا الكون هو نار . فالعالم واحد للجميع ، لا أحد من الإلهة ولا من البشر صنعه ، فهو كان وكائن وسيكون ناراً حية أبدية [٤٢] .

هذه الرؤية للنار قادت هرقليطس للتوحيد بين مبدأ الكون وقانونه الذي يقيه حياً خالداً ، وهو النار التي يصدر عنها كل شيء ويعود اليها . هذه النار بالنسبة لهرقليطس هي ليست أحد العناصر الاربعة المحسوسة المتغيرة ، بل هي نار الهية ذات طبيعة أثيرية نسمة حارة حية عاقلة أزلية أبدية هي حياة العالم وقانونه [٤٣] . اي انها قانون الكون ومظهره المادي ، وكما يشير هرقليطس انها نار الهية، فهي حرارة وجفاف محض . ورغم ذلك هي ليست مجرد رمز للتجريد ، فالنار بالنسبة لهرقليطس أعلى وأنقى من المادة (أي النار المحسوسة) ، فهي اداة للروح والذهن ، بل هي الروح والذهن ذاتهما [٤٤] . وكما يشير ((زلر)) ان نار هرقليطس هي ليست مجرد لهب ، فهي حرارة بوجه عام ، ولهذا السبب انها تدل على النفس [٤٥] . لذا لم يكن غريباً أن يرى هرقليطس أن كل ما في هذا الوجود يأتي من النار . أما كيف يتم ذلك ؟ يتحدث هرقليطس مبيناً أن ذلك يتم بتحول النار . أي أن هناك تغير يطرأ على النار الإلهية ، لتتحول الى نار محسوسة ، وسبب ذلك ما يعتريها من وهن فيتكاثف بعض النار ليصيرا بحراً ويتكاثف بعض البحر ليصيرا أرضا ... وهكذا تتكون الموجودات بازدياد التكاثف للنار وقلته [٤٦] . كما يشير

وولترستيس الى ان تحول النار الاولية لدى هرقليطس يتم بطريقين يمثل تحول النار الى هواء والهواء الى ماء والماء الى تراب الطريق الهابط ، ويقابله الطريق الصاعد الذي يتحول فيه التراب الى ماء والماء الى هواء والهواء الى نار (٤٧) . كما يبدو فان الموجودات تظهر الى الوجود بتحول النار عن طريق هذين الخطين .

ما طرحه هرقليطس حول المبدأ الأول لبدء الوجود ، لا يخلو من الغموض مقارنة بمن سبقه ، كما ان ما طرحه أكثر تجريداً من طاليس وأنكسيماندر . وهو يتفق مع انكسيماندر حول مسألة الصراع بين الأضداد ، الا انه يختلف عنه بتكون العوالم ، فهي تصدر جميعاً من الوحدة (النار) ، وان كان ذلك يتم بصورة غير مباشرة بعد أن يتحول جزء من النار الى نار محسوسة . الا ان هرقليطس لم يبين لماذا يطرأ ذلك التحول على النار الإلهية الأزلية الخالدة . ربما لأن هذا ينسجم مع اعتقاده بالتغير فلا شيء كما يرى يبقى ثابتاً سوى التغير ذاته . وربما انه كان مضطراً للقول بالتحول الذي يطرأ على النار ، لتتكون بذلك الموجودات ، فلولا هذا التغير الذي طرأ على النار لم يتكون شيء .

نلاحظ ان هرقليطس شأنه شأن انكسيماندر ميز بين المبدأ الاول الذي تصدر عنه الأشياء ، والاشياء ذاتها ، رغم وحدة الوجود لديه ، فكل شيء الإله والعالم بموجوداته المختلفة وقانونه نار . وكيف لا يفرق هرقليطس بين النار الإلهية الازلية وبين ما يصدر عنها ، وهو الفيلسوف الذي كان يؤكد ترفعه عن العامة ، فهو يشابه أنكسيماندر الذي جعل العالم لا يصدر عن مبدئه الاول (اللامتناهي) مباشرة ، بل مما انفصل عنه وهو (الحار والبارد) .

ثالثاً : مدرسة الكثرة او التعدد

حاول فلاسفة هذه المدرسة تقديم رؤية جديدة لتفسير نشأة الوجود خالفوا بها الفلاسفة الذين اعتقدوا بأصل واحد ، فردوا ما في العالم من موجودات مختلفة الى مادة واحدة ، ولما تمر به من تحولات . كما ان بحثهم لحقيقة التنوع والتغير والتعدد وحقيقة الوجود المادي ، جاء مخالفاً بطريقة أو اخرى لطبيعة منطق بارمنيدس الذي انكر فيه التغير والتنوع (٤٨) . أي انهم خالفوا المدرسة الأيونية التي ردت أصل الوجود لمادة واحدة ، والمدرسة الإيلية التي أكدت على الوحدة وأنكرت الكثرة ، وأكدت على السكون وأنكرت الحركة . أي أن أصحاب الكثرة لم يقتنعوا بآراء من سبقهم في هذا الموضوع ، فحاولوا تقديم تصورهم الخاص ، الذي سنتعرف عليه بتسليط الضوء على آراء الفيلسوفين الذين تم اختيارهما انبادوقليس وديمقريطس .

١ – انبادوقليس Empedocles

وقع اختيارنا على انبادوقليس أولاً لأنه – كما سنرى – أول من فصل بين المادة وحركتها . وهذه مسألة مهمة في تصور المادة واستقلالها . وثانياً لأنه كطاليس قدم تفسيراً واضحاً لبدء الوجود حينما

رأى أن المبدأ الاول لظواهر الوجود المختلفة كامن فيه . وثالثاً لأنه أكد على التفرد والاستقلال لكل عنصر .

من وجهة نظر انبادوقليس أن النوع الواحد من المادة لا يمكن أن يتحول الى نوع آخر ، فالنار لا يمكن أن تصبح ماءً ، كما لا يمكن للتراب أن يصبح هواء أطلاقاً ، وهذا قاده للقول بمذهب العناصر [٤٩] . إن اعتقاده بتعدد العناصر يعكس رؤيته الخاصة لتفسير أصل الوجود ، وفي الوقت ذاته هو نقد للفلاسفة الذين قالوا بامكانية تحول المادة من حالة الى اخرى . ومن هنا يقول أرسطو طاليس أن انبادوقليس اختلف مع أسلافهِ ، لانه أول من أدخل تقسيم العناصر ، فهو لا يفترض أن يكون هناك مصدر واحد يمر بعدة تحولات ، بل هناك مصادر مختلفة ومتغايرة . لذلك يعتبر انبادوقليس أول من تحدث عن أربعة عناصر مادية ، رغم انه لا يعدها أربعة عناصر بل اعتبرها عنصرين فقط ، فاعتبر النار لوحدها ، ويُضادها التراب والماء والهواء ، فهي جميعها شيء واحد [٥٠] .

تمثل هذه العناصر المتفردة ، الأصول الاولى ، التي نشأ منها كل شيء ، وقد اضاف انبادوقليس اليها عنصر التراب . فهو أول من أدخل عنصر التراب ليصبح مبدأً لأصل الوجود [٥١] .

يسمى انبادوقليس هذه المبادئ بالجذور (Roots) وقد أطلق عليها أسماء آلهة وهي زيوس المضيء (Zeus) وهيرا (Hera) واهبة الحياة ، وايدونيس(Aidoneus) ونيستس (Nestis) (٥٢) . زيوس هو النار وهيرا التراب وايدونيس الهواء ونيستس الماء .

وكما اعتبر انبادوقليس هذه الجذور هي كل الأشياء ، وهي أبدية ، فلا شيء يأتي من لا شيء أو ينتهي الى لا شيء [٥٣] . أي انها أزلية وأبدية .

ويصف انبادوقليس عملية تكون الأشياء من الجذور بالدوامة ، التي بسبب دورانها تنفصل العناصر عن الخليط الأصلي فيحدث أولاً الهواء ثم النار ثم التراب ثم الماء ، الهواء حدث عن الماء بفعل التبخر ، والسماوات حدثت عن الهواء ، والشمس عن النار . أما الكائنات الحية فقد وجدت أول الأمر أعضاء منفصلة كانت تبحث عن أقرانها ، وباتحاد الحب والغلبة تجمعت هذه الأعضاء [٥٤] .

ان كون جميع الأشياء تأتي من الجذور ، وتنتهي اليها ، لا يعني ان هذه الموجودات أو الأشياء متشابهة . بل هي مختلفة بعضها عن بعض ويعود ذلك الاختلاف للنسب التي تتألف منها ، فبعضها تكون نسبة النار فيه أكثر من غيرها ، وبعضها تكون نسبة التراب هي الأكثر وهكذا . وهذا يعني ان انبادوقليس يرى أن سبب التفاوت الكيفي بين الموجودات يعود لاختلافات كمية [٥٥]. أي ان كل موجود من الموجودات فيه نسبة محددة من كل عنصر من العناصر ، وتختلف هذه النسب من موجود لآخر .

أما كيف تتكون الموجودات من الجذور ، كيف تتصل ، وكيف تنفصل . يقدم انبادوقليس قوتي الحب والبغض أو المحبة والكراهية أو كما يسميها وولتر ستيس التناغم والتنافر [٥٦] .

يمر العالم في دورات متعاقبة تتكون من أربع مراحل في كل مرحلة تكون الغلبة والهيمنة لقوة من القوتين . يُهيمن الحب في المرحلة الاولى ، بصورة مطلقة ، ثم يبدأ بالانحسار في المرحلة الثانية ، ويأخذ البغض بالتغلغل ، ثم تكون الهيمنة له في المرحلة الثالثة ، بعدها يعود الحب مرة اخرى للظهور في المرحلة الرابعة ، التي ينحسر فيها البغض [٥٧] .

كما يبدو من هذه الدورات التي يمر بها العالم ، إنها تبدأ بالحب وتنتهي به ، بينما يسود البغض في المراحل الوسطى لدورات العالم .

لقد جعل انبادوقليس لكل من الحب والبغض وظيفة ، فوظيفة الحب هي تحقيق الاتحاد ، أما البغض فوظيفته تفريق الاتحاد مرة اخرى [٥٨] .

لقد فصل انبادوقليس بين الاصول (الجذور) الأربعة لبدء الوجود وسبب تكون العوالم المختلفة منها ، وهي قوتا الحب والبغض . صحيح أن الحب والبغض قوتان ضروريتان لتكون الموجودات من الجذور ، وعودتها للنار مرة اخرى . الا ان هذه الفكرة لا تخلو من الغموض ، فهي ليست إلاهية كما هي الجذور ، ولا هي قوة مادية كما يقول (برنت) (Burnet) ، مثل العناصر المادية الأربعة [٥٩] .

كما يبدو لنا أن أهمية تفسير انبادوقليس لأصل بدء الوجود ، يكمن في فصله المادة عن الحركة ، التي تجسدت بقوتي (الحب والبغض) . وان كان ما ذكره عن هاتين القوتين لا يخلو من الغموض كما ذكرنا . وربما كان مضطراً للقول بها ، لتفسير تكون الموجودات وفنائها ، باتحاد الجذور وافتراقها .

أو ربما يكون تأثر بما قاله هزيود عن الايروس (قوة التولد والحب) ، الذي مثل عنصراً من عناصر نشأة الكون ، وقد أضاف اليه البغض ضداً له .

أما فكرة القول بالعناصر الأربعة ، فلم تقدم أية إضافة لما ذكره طاليس وانكسمينس وهرقليطس (الماء ، الهواء ، النار) . ربما قال بها لسببين أولهما لأنه رفض أن تمر المادة الواحدة بعد تحولات ، فلا تكون لها كيفيات خاصة بها . وثانيهما ربما لأنه أراد اضافة عنصر التراب فقط ليصبح عنصراً مكملاً لبقية العناصر.

٢ – ديمقريطس (Democritus)

تأتي فلسفة ديمقريطس لتقدم لنا تصوراً جديداً مختلفاً لحقيقة مبدء الوجود التي اختلفت بشأنها الآراء كما رأينا. وعلى خلاف الاصول المادية المألوفة التي فسر بها الفلاسفة بدء الوجود ، يطرح ديمقريطس مبدأً مادياً ، الا انه غير مألوف لنا ، لا نعرفه كمعرفتنا للتراب والماء والهواء والنار . فنحن لا نرى هذه الذرات ، ولكن نرى المظاهر المختلفة للوجود والتي تتصف بتغيرها المستمر .

تمثل الذرات لدى ديمقريطس كل شيء منها تحدث جميع الأشياء ، وتعود اليها ، وكما يقول أرسطو طاليس : ((لما لم يهتم ديمقريطس ولوكيبوس الا بصور العناصر استخرجا منها استحالة الأشياء وكونها[٦٠] أي أن ديمقريطس كان شغله الشاغل هو الذرات ، لذا أرجع كل شيء اليها .

انطلق ديمقريطس لعرض نظريته لتفسير بدء الوجود ، بتحديد مبادئ رئيسة له ، لعرض رؤيته ، والتي تجلت بالذرة والخلاء (الفراغ) والحركة الدائمة للذرة . هذا يعني انه حدد مادة تتكون منها الموجودات ، وهي الذرة . كما حدد المكان الذي سيأوي الموجودات ، وهذا يعود بنا لهزيود الذي وضع الخاوس (chaos) (الفراغ) أول عناصر نشأة الكون . كما عرضنا لذلك . كما أضاف ديمقريطس الحركة للذرة ، وهي هنا ليست خارجة عنها ، كما هو الحال مع انبادوقليس ، فهي مرتبطة بها . أي ان الحركة هي خاصية من خواص الذرة .

تمثل الذرة كل شيء ، فمنها تأتي جميع الاشياء ، ابتداءً بالعناصر الأربعة (التراب ، الماء ، الهواء ، النار) [٦١] . لم تعد العناصر هنا أصولاً أولى لبدء الوجود ، كما كانت مع من سبقه من الفلاسفة . فهي كغيرها من الاشياء تأتي من الذرات .

كما ميز ديمقريطس بين الذرات والموجودات ، فالذرات لديه أزلية أبدية لامتناهية احجامها ولا اعداداها ، وهي تدور في كل جزء من العالم على شكل دوامة ، وتتحرك حركة أبدية [٦٢] . كما يبدو ان كل شيء بذرات ديمقريطس لا متناهي أحجامها وأعدادها وحركتها . ويفسر أرسطو طاليس ذلك مشيراً الى أن هؤلاء الفلاسفة (الذريين) لأنهم كانوا يحسبون الحقيقة مجرد ما هو ظاهر وكانت الظواهر متضادة ولا متناهية بالعدد معاً ، اضطروا أن يجعلوا أشكال الذرة لا متناهياً أيضاً [٦٣] .

يبدأ كل شيء من الذرات ويعود اليها ، فهي كانت منذ الأزل وستظل الى الأبد في حركة دائمة [٦٤] . يشير (فولر) (Fuller) أن ديمقريطس يخبرنا أن الذرات تختلف بالحجم اضافة للشكل ، مؤكداً اننا لا نعرف ان كان ديمقريطس يردد ما سمعه من استاذه ليسيبوس (leucippos) ، أو له أضافة لمبدأ الذرات [٦٥] . هناك ما تختلف به الذرات وهو الحجم والشكل ، بغض النظر سواء أكان هذا الكلام لديمقريطس أم لاستاذه .

كما يشير ديمقريطس أن الذرات كلها تتألف من نفس المادة ، وأن وزنها ينسجم تماماً مع أحجامها ، وبناءً على ذلك ، اذا كان هناك جسمان مركبان متشابهان في الحجم ، ومختلفان في الوزن ، فان هذا الاختلاف يكون بسبب أن الحيز الفارغ في أحدهما أكثر من الآخر [٦٦] . أي ان تحديد الوزن مرتبط بالحجم ، فحينما يكون حجم الذرات كبيراً تصبح الأوزان أثقل والعكس صحيح . كما تختلف الذرات من حيث الشكل فمنها المستدير والمحدب والخشن والأملس ... وغيرها . وتتكون الأشياء وتفسد بفعل حركة الذرات في الخلاء ، حيث تلتقي ذرات شكل معين لتكون موجوداً معيناً . ثم يضاف لهذا الموجود الثقل والخفة . فالموجودات الأثقل تتصف بانها أكبر حجماً وأقل خلاءً وأبطء حركةً ، وتستقر في المركز . بينما الموجودات الأخف وزناً تتصف بانها أصغر حجماً وأكثر خلاءً وأسرع حركةً ، وتتحرك نحو المحيط ، كما تكتسب حينها الكيفيات المحسوسة الاخرى كالون والطعم والحرارة وغيرها [٦٧] . مما يبدو ان

ديمقريطس ميز بين سمات خاصة بالذرات حددها بالحجم والشكل ، وسمات اخرى تضاف لها عندما تتحد مع بعضها لتكون موجوداً معيناً ، وهي الثقل والخفة . اضافة لبقية الكيفيات . لكن كما يتضح أن جميعها متغيرة سواء سمات الذرات أم سمات الموجودات ، فاشكال وأحجام الذرات لا متناهية .

لا شك أن رؤية ديمقريطس لتفسير بدء الوجود جاءت مختلفة ، عما طرحنا من آراء ، فهي اكثر تجريداً وابداعاً عقلياً . كما أن أجزاءها جاءت متناغمة مع بعضها ، يكمل أحدها الآخر ، الذرات والخلاء والحركة الأبدية للذرات . وان هناك اختلافاً حول طبيعة الحركة الأولى ، فهناك من يرى أن الذريين كانوا يظنون أن الذرات ساقطة أبداً الى أسفل ، وأن أثقلها كان أسرعها هبوطاً ، وأثناء هبوطها تصطدم بالذرات الأخف فتنحرف هذه الذرات هنا وهناك [٦٨] . ولربما كان ديمقريطس مضطراً للقول بحركة الذرات ، لانها لو كانت ساكنة لما تكون شي ء ، إذ بحركتها تلتقي الذرات لتكون موجوداً من الموجودات ، وافتراقها يعني فناء موجود من الموجودات وبقاء الذرة خالدة .

كما بدا لنا أن المفكرين الأوائل الذين ناقشوا مسألة بدء الوجود قدموا فلسفات متناقضة في ما بينها ، وانتقدوا بعضهم بعضا ، لاختلاف تصوراتهم الخاصة بشأن هذه المسألة . كما اتسمت بعض أفكارهم بالغموض ، فلم نجد تبريراً مقنعاً لها ، وربما يكون ذلك الغموض بسبب فقد الكثير من نصوصهم والتي لم يبقَ لنا منها الا شذرات ، كما يؤكد ذلك الفيلسوف (جادامر) مشيراً الى أن بدايات الفكر الاغريقي يكتنفها الغموض ، وهذا ما أدركه بالتأكيد الفيلسوف هايدجر لدى الفلاسفة أنكسيماندر ، وهرقليطس وبارمنيدس . فهم بالحقيقة ليسوا مجرد بقايا لمجموعة من الفلاسفة فلم تحفظ نصوصهم المشتملة على حواراتهم وأفكارهم بصورة كاملة . وهكذا كان هايدجر يستخدم شذرات حينما حاول تأسيس بنائه الخاص ، حيث قلب هذه الشذرات عدة مرات ليعيدها من جديد فيركبها وفقاً لمخططه الخاص [٦٩] .

بناءً على ما تقدم هل ستظهر رؤية واضحة جديدة تسلط الضوء على ذلك الغموض لإماطة اللثام عنه أم ستزيده غموضاً ؟ هذا ما سنحاول معرفته من خلال عرض آراء الفلاسفة بعد سقراط ، لنتعرف على تأثير ذلك الفكر عليهم ، أ كانت آراؤهم مجرد امتداد لما قال به المفكرون والفلاسفة قبل سقراط ؟ أم كان لها رؤيتها الخاصة ، وهل استطاعت آراء المفكرين والفلاسفة ان تفرض هيمنتها على الفلسفة فتقيدها بما طرحته من أفكار ؟ إذا كان هذا صحيحاً ، فما سبب ذلك ، هل ما طرحته كان مقنعاً ؟ أم لأن الفلسفة بعد سقراط لم تستطع أن تأتي بجديد بشأن بدء الوجود . هذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه من خلال الفلاسفة الذين وقع اختيارنا عليهم وهو : افلاطون وأبيقور وزينون الرواقي .

أولاً : افلاطون Plato

قدم أفلاطون رؤيته حول نشأة العالم بصورة خاصة في محاورتين الأولى هي محاورة بروتاجوراس التي تنتمي لمحاورات الفترة المبكرة ، والمحاورة الثانية هي طيماوس وتنتمي للمرحلة الأخيرة من مراحل تفكير أفلاطون .

يتحدث أفلاطون عن افتراض عملية نشأة الخليقة في محاورة بروتاجوراس باسطورة بروميثيوس . أما في محاورة طيماوس ، فيقدم فيها أفلاطون رؤية مفصلة عن نشأة العالم وشكله وحركته وغيرها .

وربما لأن محاورة طيماوس قدمت تصوراً مفصلاً وواضحاً عن بدء الوجود ، وبرر فيها افلاطون كل ما طرحه ، فجاءت تبريراته مقنعة ، ومقدماته منسجمة مع بعضها ، مما أدى الى أن بعض المفكرين يرون أن رؤية افلاطون حول بدء الوجود تكمن في محاورة طيماوس التي تروي قصة تكون العالم المادي ومولد الانسان والحيوان (٧٠) .

نبدأ أولاً بما ورد في محاورة بروتاجوراس ، لانها تمثل البداية الاولى لبحث افلاطون بمسألة بدء الوجود .

يأخذ أفلاطون بسرد تفاصيل تكون المخلوقات من قبل الإلهة على لسان بروتاجوراس ، مؤكداً انه في الزمن القديم كانت توجد آلهة فقط ، وعندما جاء أوان ايجاد المخلوقات الفانية شكلها الآلهة من التراب والنار وأخلاط متنوعة من كلا العنصرين ، وقد تمت هذه العملية في باطن الارض (٧١) أي ان الإلهة سبقت في وجودها المخلوقات الفانية . ثم أوجدت الآلهة المخلوقات .

ويواصل افلاطون على لسان بروتاجوراس سرد تفاصيل نشأة المخلوقات . فيذكر ان الآلهة حينما رأت أن الوقت حان لاخراج هذه المخلوقات من باطن الارض الى ضوء النهار ، أمرت الآلهة بروميثيوس (Prometheus) ، وابيميثوس (Epimetheus) أن يمدوا هذه المخلوقات بما تحتاج اليه من صفاتها الخاصة بها ، فطلب بروميثيوس من ابيميثوس القيام بذلك ، ويقوم هو بالمراقبة . أعطى ابيميثوس بعض المخلوقات القوة والسرعة ، وزود الضعيف بالسرعة ، وسلح بعضها وترك الآخر ، مبتكراً لها وسائل اخرى للمحافظة على بقائها ، فجعل بعضها ضخماً تحميها ضخامتها ، وبعضها صغيراً يساعدها ذلك على الطيران ، أو تتخذ من الارض جحوراً ، تكون وسيلة لها في الهرب . وهكذا منع أي جنس من الانقراض . ثم عمل ابيميثوس على حماية تلك المخلوقات من تقلبات الطبيعة ، فكسا بعضها بشعر كثيف وجلد غليظ ، يحميها من برد الشتاء وحر الصيف ، ثم هيأ لكل نوع الطعام المناسب ، فبعضها طعامها الحشائش ، واخرى ثمار الاشجار أو جذورها ، وبعضها أصبحت طعاماً لغيرها . كما هيأ بعض المخلوقات لانجاب عدد قليل من الذرية ، واخرى كثيرة الانجاب . الا ان ابيميثوس نسي أن يعطي الانسان ما يحافظ به على وجوده ، وحينما جاء بروميثيوس ليراقب عملية التوزيع ، وجد ان الحيوانات زودت بما يناسبها ، وترك الانسان عاري الجسم والقدمين ، لا مأوى له ، ففكر بروميثيوس بوسيلة لحمايته فسرق الفنون من هيفايستوس وأثينا وسرق النار ، ليساعد بها الانسان في الحفاظ على حياته (٧٢) .

تصور هذه المحاورة نشأة المخلوقات ، التي تبدأ بالآلهة ولا يبين لنا أفلاطون كيف وجدت إنما فقط يشير إلى أنها سابقة في الوجود على المخلوقات . وهي من يتولى عملية خلق المخلوقات الحيوانات والانسان .

كما يطرح بها فكرة العناية الإلهية وفكرة العدالة في تقسيم وسائل الحماية والدفاع بين المخلوقات كما يطرح وسائل استمرار وجودها بالغذاء والتكاثر ، الذي تختلف فيه بعضها عن بعض . كما يبدو ان افلاطون ميز بين المخلوقات بوسائل الدفاع والغذاء .

أما في محاورة طيماوس فيطرح افلاطون تفاصيل نشأة العالم على لسان طيماوس ، فيعمل أولاً على تميز الكائن الكامل عن الكائن المُحدَث . ثم يبحث عن العلة التي من أجلها أوجد الصانع العالم حيث يقول : أن العلة من وراء ذلك هي . أنه كان صالحاً والصالح لا يشوبه حسد من أي شيء ، ولما كان ذلك أراد أن تكون الأشياء قدر المستطاع شبيهة به [٧٣] .

بعدها يروي افلاطون كيف نشأ العالم مشيراً الى أن العالم تولد بالانتقال من الفوضى الى النظام بتدخل الإله الذي أراد أن تكون جميع الأشياء جيدة ، فلا يكون بينها شيء خبيث ، أراد الإله النظام لأنه حالة أفضل من حالة الفوضى [٧٤] . أي أن العالم بدأ بتحوله من حالة الفوضى الى حالة النظام ، وهذا له دلالة ، وهي ان الحفاظ على الحياة يكون بالاسقرار .

كما يشير أفلاطون أن الإله كون المخلوق أو المُحدَث ، أي الجسم المرئي من العناصر الأربعة الماء والهواء في وسط النار والتراب ، ثم نظم الإله العالم فجعله متكاملاً ، فهو لا يهرم ولا يمرض ، ثم أعطاه شكلاً مناسباً وهو الشكل الكروي ، الذي هو أكمل الأشكال ، ووهبه حركة دائرية حيث يدورُ على نفسه ، ثم مَن عليه الإله بالنفس ، فجعلها وسط جسم العالم ، تتخلله وتحيطه من جميع الجهات [٧٥] .

بعد أن حدد الإله مادة العالم (العناصر الأربعة) والشكل والحركة والنفس ، أخذ الصانع بايجاد الكائنات الحية ، حيث صورها على طبيعة مثال العالم ، ذلك لأن الإله أراد أن يكون في هذا العالم كائنات شبيهة بالمثل وهي :

١ – المثال الاول هو جنس الآلهة السماوي .

٢ – المثال الثاني هو جنس الطيور الطائرة في الهواء .

٣ – المثال الثالث هو صنف المائي .

٤ – والمثال الرابع الجنس الذي يمشي على الأقدام والأيدي [٧٦] . أراد أفلاطون كما يبدو بهذه الاجناس أن يبين أصناف المخلوقات وأماكن عيشها الملائمة لها ، فمنها من يحيا بالسماء وهو الإلهة ، واخرى تعيش في الهواء ، أو الماء واخيراً تلك التي تحيا على الارض .

ويبدو أن الإله الصانع هو الذي أوجد هذه المخلوقات . وفكرة (الصانع) يطرحها أفلاطون لأول مرة في طيماوس ، وهي فكرة لا تخلو من الغموض ، فهي كما يشير (لفجوي) الى أن بعض المفسرين يرون في هذا الخالق تجسيداً شعرياً لفكرة الخير ، أو هو اله ثانٍ انبثق عنه ليمارس الواحد المطلق من خلاله عملية خلق العالم [٧٧] . عاد أفلاطون كما نرى في محاورة طيماوس لما سبق وطرحه في محاورة

بروتاجوراس ، حيث أشار الى مادة العالم وتتمثل بالعناصر الأربعة كما طرح فكرة العناية الإلهية ، وهذه الفكرة مهمة في تصور أفلاطون إذأكد عليها في عدة محاورات اضافة لما ذكر ، ومنها محاورة فيليبوس التي يتساءل بها أفلاطون على لسان سقراط وهو يسأل بروتارخوس (Protarchus) قائلاً : هل أن ما ندعوه كوناً ترك للامعقول والصدفة والاتفاق لتتولى توجيهه ، أم على العكس من ذلك كما يذكر أجدادنا أن عقلاً وحكمة رائعة تنظمه وتسويه [٧٨] .

اما الحديث عن شكل العالم وحركته والنفس ، فقد ورد ذكرها في طيماوس فقط .

من الواضح ان الفكر الاغريقي قبل سقراط ترك بصماته المؤثرة على أفلاطون ويمكن ان نشير لذلك التأثير كما يلي :

١ – عاد أفلاطون في موضوع بدء الوجود لما طرحه هزيود ، حينما أشار ان الآلهة سبقت بوجودها المخلوقات ، وكانت سائر الموجودات من صنع الآلهة .

٢ – هيأ الإله العالم الملائم للمخلوقات ، حيث نقل العالم من حالة الفوضى الى النظام . وهذا ما نجده لدى هزيود حينما طرح فكرة الخاوس (chaos) العماء أو الفراغ ، لتهيئة المكان لمجيء المخلوقات .

٣ – كون الإله المخلوقات من العناصر الأربعة . هذا التأثير واضح من المدرسة الايونية وبمدرسة الكثرة وبصورة خاصة بالقيلسوف انبادوقليس . بمعنى اخر افلاطون يرى ان العالم تكون من عناصر مادية وهي النار والهواء والماء والتراب .

٤- رؤية افلاطون لحركة العالم الدائرية وشكله الدائري هو امتداد لما ذكره هرقليطس وانبادوقليس وديمقريطس ، بمعنى اخر ان نظام العالم وشكله وحركته معقولة مجردة خالدة ابداً ، بينما موجودات العالم المادية فانية .

٥ – جعل افلاطون النفس مبدأ الحياة والحركة ، للعالم وللمخلوق ، الذي هو جسم مرئي ، بمعنى اخر استبدل افلاطون قوتي المحبة والكراهية لدى انبادوقليس أو أن تكون المادة بذاتها متحركة كما هو الحال مع ذرات ديمقريطس .

ثانياً : الابيقورية Epicureanism

يُعد مؤسس الفلسفة الأبيقورية أبيقور وآخر فلاسفة الذرة في اليونان ، تأثر بمذهب الذرة الذي طرحه لوقيبوس وديمقريطس .

لقد آمن أبيقور بالنزعة الذاتية لدى ديمقريطس بكاملها ، مع إجرائه لبعض التعديلات الطفيفة عليها[٧٩] .

لم يأخذ أبيقور من ديمقريطس فقط نزعته الذاتية المادية ، بل انه كذلك خطا ذات الخطوات التي اعتمدها ديمقريطس لطرح رؤيته بشأن بدء الوجود . فبدأ أولاً بوضع أسس أولية انطلق منها لتوضيح

مذهبه لتفسير نشأة الوجود : وهي قوله بالذرة والخلاء ، وكذلك تحديد سمات خاصة للذرة تتميز بها بعضها عن بعض وهي الشكل والحجم أو الثقل.كما يحدد أبيقور الحركة وكيفية حدوثها .

صحيح ان أبيقور اتبع ديمقريطس في رأيه بان العالم مكون من ذرات وفراغ ، الا انه لم يكن يؤمن كما آمن ديمقريطس بان القوانين الطبيعية مسيطرة بصورة تامة على الذرات [٨٠] . بمعنى آخر ان ذرات أبيقور كانت تمتلك شيئاً من الحرية وليس كما هو الحال مع ذرات ديمقريطس التي تحكمها الضرورة الصارمة . كما سنرى ذلك .

قول أبيقور ان الذرة هي المبدأ الأول لبدء الوجود يعني انه عاد لرأي المدرسة الأيونية ، ورأي انبادوقليس وديمقريطس ، الذين قالوا جميعهم أن المبدأ الاول لنشأة الوجود هو مادي . وان كانت الذرة كما ذكرنا ليست مألوفة لنا كالماء والهواء والنار . تتكون الأشياء كلها من الذرات واليها تنحل لتعود لها مرة اخرى ، فهي خالدة لا تزول .

أما كيف تتكون الموجودات من الذرات ، فيتم ذلك بسبب اجتماع الذرات مع بعضها في الفراغ ، وتفنى بسبب افتراق الذرات عن بعضها . ويحدث اجتماع الذرات وافتراقها بسبب حركة الذرات . أما سبب الحركة ، فهو كما يرى أبيقور - وهو رأي ديمقريطس ذاته - فيعود لطبيعة الذرات نفسها ، ولحركتها الأولية ، فالذرات مهما اختلفت في أشكالها أو أحجامها أو أوزانها تتحرك باتجاه واحد من أعلى الى أسفل وبسرعة واحدة متساوية [٨١] . حركة الذرات هذه نابعة منها فهي حركة آلية ، وبهذا ينكر أبيقور أن يكون هناك سبب خارجي لحركتها ، أو عقل ينظمها ، وليس هناك دخل للآلهة بحدوثها [٨٢] .

كما يبدو أن أبيقور حاول حل مشكلة تكون الموجودات من الذرات الساقطة بصورة عمودية نحو المركز بسبب ثقلها كما ذكر ديمقريطس وسبب اصطدامها بالذرات الصغيرة التي تتناثر هنا وهناك بحركة دوامة بفعل الاصطدام فتلتقي ببعضها . لذا أنكر أبيقور ذلك مشيراً الى ان الذرات حينما تسقط في الخلاء بصورة عمودية وبسرعة واحدة ، لا تستطيع أن تصطدم إحداها بالاخرة ، لذا افترض كما يبدو لها إرادة حرة ، بفضلها تنحرف بدرجة يسيرة عن خطها العمودي وبهذا الانحراف تتمكن من الاصطدام بعضها ببعض [٨٣] . أي أن الموجودات تتكون بفعل انحراف الذرات الذي يتيح لها الالتقاء بعضها بالاخر لتكون موجود من الموجودات .

لقد حدث انحراف الذرات الساقطة بصورة عمودية بسبب الارادة الحرة للذرات . وهي ما خالف به ديمقريطس . حيث تخضع ذرات ديمقريطس للضرورة الصارمة في حركتها . ويشير (رسل) الى أن فكرة الضرورة لدى اليونان تعود الى الدين ولذلك ربما يكون أبيقور قد أصاب في اعتقاده ان الهجوم على الدين لا يتحقق إذا لم يتم القضاء على فكرة الضرورة [٨٤] .

وربما لم يقتنع أبيقور بما قاله ديمقريطس لتصادم الذرات الكبيرة بالذرات الصغيرة أثناء سقوطها العمودي ، ولم يجد مخرجاً لهذه العقبة ، فقال بانحراف الذرات ، بمعنى انه كان مضطراً للقول بها ، إذ لولا هذا الانحراف لما تكونت الموجودات ، فهو شرط لوجودها .

ولعل الفلسفة الأبيقورية كانت مجرد امتداد لفلسفة ديمقريطس ، ويمكن ان نقول انها عادت مرة اخرى للاتجاه المادي الذي فسر كل شيء بصورة آلية ، ومنكراً تدخل أي قوى خارجية أو مفارقة ، كما هو الحال مع قوتي المحبة والكراهية لانبادوقليس والعناية الإلهية لافلاطون .

ثالثاً : الرواقية Stoicism

يعود بنا زينون مؤسس الرواقية مرة اخرى للفلاسفة الأيونيين الذين أضفوا صفة الحياة على الطبيعة ، فهي حية . كما انهم الفلاسفة الذين ردوا أصل الوجود الى عنصر مادي واحد . ويظهر هنا بصورة خاصة تأثير هرقليطس على زينون ومدرسته التي آمنت بكل ما قال به هرقليطس .

أخذت الروقية بما قال به هرقليطس في بدء الوجود وهو النار . فهي تمثل كل شيء ، تبدأ منها الأشياء وتنتهي اليها حينما تفنى .

يتشكل العالم حينما تتحول النار الى بخار ناري ، ومنه يتكون أولاً الهواء ، ثم الماء الذي يتكاثف جزء منه الى تراب ، وجزء آخر يبقى ماء ، والجزء الثالث يكون هواء (٨٥) .

يشير رسل ان النار كانت وحدها أول الأمر العنصر الموجود ثم ظهرت سائر العناصر ، الهواء والماء والتراب (٨٦) . هذا يعني ان الآلهة ، التي تتجسد هنا بالنار هي زيوس ، وربما كان ذلك هو – السبب في أن الموجودات تظهر للوجود بعدها – فهي سابقة لها . عندما حول الله النار الى ماء لم تكن اجزاء الماء متجانسة الصفات لذا رسب ما ثقل منها وبهذا تكونت الارض وتبخر ما خف فكان هواء وخف الهواء حتى استحال أثيراً وناراً سماوية . ثم امتزجت العناصر الأربعة ، النار ، الهواء ، الماء ، التراب ، فتولدت منها الأشياء (٨٧) . صحيح أن كل شيء أصله نار الا أن الموجودات تتفاوت تبعاً لعناصر تكونها ولنسب تلك العناصر ، فالعالم وجد حينما حول الله النار جزءاً من نفسه الى ماء ومنه تميز عنصران ايجابيان هما النار والهواء وعنصرين سلبيين هما الماء والأرض (التراب) (٨٨) . يفصل زينون كما فعل هرقليطس بين المبدأ الأول ، وما يتكون منه ، فالنار سابقة على الموجودات فهي لم تأتِ منها مباشرة بل تكونت بعد أن تحولت (النار) الى بخار ناري ومن هذا البخار تكون الماء ومنه تكونت بقية العناصر . نستشف من هذا أن زينون يختلف عن هرقليطس ، حيث تتحول النار الإلهية الى نار محسوسة ومنها تأتي جميع الأشياء . الا ان هذا لم يقضِ على الغموض الذي يلف هذه الفكرة ، فهو لم يبين كما لم يبين هرقليطس قبله ، لماذا يطرأ هذا التغير على النار الإلهية الشفافة فتتحول الى نار محسوسة ، كما عرضنا ذلك مع هرقليطس ، لم يبين زينون أيضاً لماذا يتغير الإله الى بخار ناري . وكما قلنا مع هرقليطس ربما لانه كان مضطراً للقول بذلك فبدون هذا التغير لن يتكون موجود أو شيء ما . وربما لأن النار هي الآلهه زيوس ، والتفكير الاسطوري والديني لدى الاغريق السابق على ظهور الفلسفة يشير الى أسبقية وجود الآلهة قبل المخلوقات الاخرى ، لذا فان هذا الفصل بينهما يبدو وارداً . ويعزز ذلك هو أن النار وحدها

الخالدة فهي أزلية ابدية ، يأتي منها كل شيء وينتهي اليها . فالعالم الذي يتكون منها فانٍ فعاجلاً أو آجلاً سيحدث الاحتراق الهائل (السنة الكبرى) للعالم ، فتحل محله النار الاولية ، ويتصاعد مرة اخرى من هذه النار سلسلة من التكاثف ، وهكذا تكون بداية كون اخرى ، وهو ايضاً سينتهي بالاحتراق ، كما انتهى الكون السالف [٨٩] . هذا ما ذكره هرقليطس وهو أن العالم ينتهي ليعود مرة اخرى ناراً ، ثم يتكون عالم آخر ، وهكذا يستمر هذا الدور . ربما بقاء النار وفناء العالم ، لأن الآلهة وحدها الخالدة والنار الهية .

حينما ينتهي العالم بالاحتراق الهائل وهو ما اطلقوا عليه بالسنة الكبرى ، يأتي عالم جديد تجري فيه ذات الاحداث بانتظام وانسجام لأنها تجري وفق تدبير وعناية الهية . إضافة لذلك أن هذه الدورات المتكررة المنتظمة تجري ايضاً وفقاً لقانون ضروري وحتمي ، وعليه فقد اعتقد الرواقيون الحتمية أو القدر [٩٠] . يبدو أن الرواقية عادت ايضاً الى فكرة العناية الإلهية ، والتي تجلت بصورة واضحة مع أفلاطون ، وهي بهذا تخالف معاصرتها الأبيقورية التي نفت أن يكون للآلهة أي دور في كل ما يجري في العالم . كما ان فكرة الضرورة التي آمنت بها الرواقية ، كما بينا مع أبيقور أساسها ديني .

أكدت الرواقية أن هناك صلة تربط بين الآلهة والموجودات ، رغم انها فصلت بين النار (زيوس) وبقية الموجودات ، فإله الرواقية يحيط برعايته كل شيء ، بل اكثر من هذا نجد أن إله الرواقية مباطن للعالم ، حيث ربطت بين المبدأ الاولي لبدء الوجود وهو النار والعالم تماماً ، كما ترتبط النفس بالجسم ، فالنفس اشبه بالنار ، وهي تأتي منها وتنفذ في الجسم كله ، وكما أن هذه النفس تنفذ في الجسم كله ، كذلك يحيط الإله أو النار الاولية بالعالم كله ، فهي النفس بالنسبة للعالم ، والعالم هو جسمها[٩١].

ان وحدة الوجود تعني ان موجد العالم والعالم شيء واحد فهو قريب منه مباطن له ، وربما أن الرواقية قالت بوحدة الوجود للتأكيد على ان الله والاشياء شيئاً واحداً ، وللتأكيد على العناية الإلهية فهو يحيط بكل صغيرة وكبيرة في هذا العالم .

أما كيف ينتهي العالم بالاحتراق الكلي ، فالرواقية تشير الى ان ذلك يتم بعد انقضاء ١٨٠٠٠ سنة مكررة ٣٦٥ مرة ، ويحدث هذا عندما لا يبقى ماء على وجه الارض ، عندها ينشر زيوس اللهب في الفضاء ، فتلتهم النيران العالم كله . وهذا الاحتراق يتم في شفافية ومن غير عنف ، فهو كما سماه زينون تطهير العالم ، ويقصد إعادته الى كماله الاول [٩٢] . ويمكن ان نلاحظ ان سبب وجود العالم هو ذاته سبب فنائه ، فكما أن كل الأشياء تكونت بعد تحول النار الى بخار ناري ليتحول هذا الى هواء ومن الماء تكون الماء والتراب . وحينما يسحب زيوس الماء من الارض فيصبح كل ما في العالم جافاً ، فهو يسهل عملية احتراقه بسهولة وسرعة ، وربما كان ذلك بسبب العناية الإلهية للموجودات ، لذا يبدو الاحتراق بغاية الشفافية والهدوء .

نستشف مما عرضنا لمشهد الفكر اليوناني قبل سقراط ، وتأثيره على مجرى الفلسفة اليونانية : انه قد ترك بصماته الواضحة على الفلسفة بعد سقراط ، فهي لم تستطع الفكاك منه ، وان اختلفت معه في بعض الأحيان . ومن ذلك كان تأثير الاتجاهين الروحي والمادي . الذين ظهرا مع الفكر اليوناني قبل سقراط ، ليطبعا الفلسفة اليونانية كلها بطابعهما ، فهي أما ذات صبغة روحية أو ذات صبغة مادية . كما أن الفكر الاغريقي كان منذ البداية فكراً عقلانياً فهو لا يقبل بالأشياء دون أن يكون لديه ما يبرر ذلك ، مما يعني أن المفكر والفيلسوف كان على وعيٍ تام بالعقبات التي ربما تحول دون فهم ما يطرحه ، وربما تشكل نقطة غامضة في فكره . كما ان الفكر الاغريقي ابتداءً كان حريصاً أن تأتي مقدماته منسجمة مع نتائجه ، مما يعني انه فكر بالنتائج جيداً فهي من سيعكس – في نهاية الأمر – صحة ودقة وانسجام وجمال مقدماته ، وهذا لم تفرط به الفلسفة اليونانية حتى في فترات ذبولها وتراجعها ، كما عكسته لنا الفلسفة الابيقورية والرواقية .

Abstract

Some of the Problems of the Greek thought before Socrates and their influences in the course of the history of Greek Philosophy .

The present study is an attempt to discuss the main problems of the Greek Philosophy , focusing on the problem of cosmogony which leads to Know how pre Socrates philosophers discus this problem in such a way that influenced the thought of the post Socrates Philosophers .

The study hopes to highlights the problem of cosmogony in attempt to find a link and harmony of the ideas of pre Socrates thinkers and Philosophers and other Philosophers of the late stages Greek society .

هوامش البحث

١ – مرسيا إيلياد : ملامح من الاسطورة ، ترجمة حسيب كاسوحة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٥ ، ص ١٨٦ .

٢ – هزيود : التيوجونيا : ترجمة ، أمين سلامة، دار الفكر العربي، مصر، ط١، ١٩٤٨، ص٣١ .

٣ – ماكس شابيرو، روداهندريكس: معجم الأساطير، ترجمة، حنا عبود ، دار علاء الدين ، ط ٣ ، ٢٠٠٨ ، سورية ، ص ٧١ .

٤ – هزيود : اثيوجونيا ، ص ٣١ .

٥ – هزيود : الثيوجونيا ، ص ٣١ . وانظر ايضاً د. محمد غلاب : الفكر اليوناني أو الأدب الهيليني ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٢ ، ج١ ، ص ١٩٥ .

6 – F. M. Cornford : From Religion to philosophy , Dover (2004) unabridged republication of the edition originally published by Harper & Row , publishers , New York , 1957 . P. 17 .

7 – Ibid , P. 18 .

٨ – هزيود : التيوجونيا ، ص ٣١ .

٩ – انظر تفاصيل ذلك في ، ماكس شابيرو، روداهندريكس : معجم الأساطير، ص ٢٥٤– ٢٥٥ .

١٠ – هزيود : الثيوجونيا ، ص ٣١ – ٣٢ ، وكذلك ماكس شابيرو ، رودا هندريكس : معجم الأساطير ، ص ٧٩ .

١١ – انظر تفاصيل ذلك في هزيود : الثيوجونيا ، ص ٣١ – ٣٣ .

١٢ – هزيود : الثيوجونيا ، ص ٤٣ .

١٣ – المصدر نفسه ، ص ٤٣ – ٤٤ .

١٤ – انظر تفاصيل ذلك في هزيود : الثيوجونيا ، ص ٥٥ – ٥٧ .

15 – F. M. corn ford : From Religion to philosophy , P. 18 .

❖الثيوجونيا (Theogonia) كلمة مؤلفة من كلمتين اغريقيتين Theos بمعنى إله ، و Gonos بمعنى نسب أو أصل .

16 – Warner Rex : The Greek Philosophers , the new American Library , New York , 1958 , pp. 23 – 24 .

١٧ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة زكي نجيب محمود ، راجعه ، الدكتور أحمد أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧ ، الكتاب الاول (الفلسفة القديمة) ، ص ٥٥ .

١٨ – فريدريك نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي ، تعريب ، د. سهيل القش ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣ ، ص ٤٨ .

١٩ – هـ . فرانكفورت ، هـ . أ. فرانكفورت ، جون . أ. ولسن . توركيلد جاكوبسن : ما قبل الفلسفة ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، مراجعة محمود الأمين ، مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر ، بغداد ، القاهرة ، بيروت ، نيويورك ، ١٩٩٦ ، ص ٢٧٨ .

٢٠ – فريدريك نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي ، ص ٤٨ .

٢١ – د. علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ط١ ، ١٩٦٤ ، ص ١٩ .

22 – Aristotle : Metaphysics , in Richard Mckeon , introduction to Aristotle , Random House , u. s. a. 1947 , p. 250 , [983b] .

٢٣ – وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٣٠ .

24 - John Burnet : Early Greek philosophy , Forgotten Books , 2012 , p. 54 .

25 – Jonattan Barnes : The presocratic philosophers , Routledge & Kegan paul , London , revised , edition , 1982 , p. 29 .

٢٦ – يوسف كرم : الفلسفة اليونانية ، دار القلم ، بيروت ، طبعة جديدة ، ص ١٤ .

27 – W.K.C. : Guthrie , A History of Greek philosophy at the university press , Cambridge , Great Britain , reprinted , 1967 , vol , I, p.79 .

28 – John Burnet : Early Greek Philosophy , p. 56 .

٢٩ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٥٩ .

٣٠ – المرجع السابق ، ص ٥٩ – ٦٠ .

٣١ – المرجع السابق ، ص ٦٠ .

٣٢ – وولترستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٣٤ .

٣٣ – المرجع السابق ، ص ٣٤ .

34 – B. A. G. Fuller : A History of Philosophy , Henry Holt & co , Revised , ed , U. S. A , 1952 , P. 53 .

٣٥ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٧٩ .

36 – Eduard Zeller : outline of the History of Greek Philosophy , Longmans Green , AND co , 1886 , p. 67 .

٣٧ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٧٩ .
38 - Eduard Zeller : outline of the History of Greek Philosophy , p. 68 .
٣٩ – يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ١٧ .
٤٠ – كريم متي : الفلسفة اليونانية ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧١ ، ص ٤٧ .
41 – B. A. G. Fuller : A History of Philosophy , p. 53 .
42 – Eduard Zeller , outline of the History of Greek Philosophy , p. 67 .
٤٣ – يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ١٨ .
44 – W. K. C. : Guthrie , A History of Greek philosophy , p.432 .
45 - Eduard Zeller : outline of the History of Greek Philosophy , p. 67 .
٤٦ – يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ١٨ .
٤٧ – وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٧٣ – ٧٤ .
48 – B. A. G. Fuller : A History of philosophy , p.70 .
٤٩ – وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٧٨ .
50 – Aristotle : Metaphysics , about Richard Mckeon : Introduction to Aristotle , [985b] .
٥١ – يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٣٦ .
52 – John Burnet : Early Greek Philosophy , p. 264 .
53 – Ibid , p. 265 .
٥٤ – د. ماجد فخري : تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩١ ، ص ٤٥ .
٥٥ – كريم متى : الفلسفة اليونانية ، ص ٥٥ .
٥٦ – وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٧٩ .
٥٧ – كريم متى : الفلسفة اليونانية ، ٥٧ .
58 – John Burent : Early Greek Philosophy , p. 268 .
59 – Ibid , 267 .
٦٠ – أرسطو طاليس : الكون والفساد ، ترجمة ، أحمد لطفي السيد ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٩٦ .
٦١ – د. ماجد فخري : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٥٠ .
٦٢ – المرجع السابق ، ص ٥٠ .
٦٣ – أرسطو طاليس : الكون والفساد ، ص ٩٦ .
٦٤ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ١١٦ .
65 - B. A. G. Fuller : A History of philosophy , p.87 .
66 – E . Zeller : outline of the History of Greek Philosophy , p. 78 .
٦٧ – يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٣٩ .
٦٨ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ١١٦ .
69 – Hans . Georg . Gadamer : Heidegger's ways , Tr , John W. Stanley , state university of New York press , U. S. A , p. 143 .)
٧٠ – فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة ، ترجمة ، امام عبد الفتاح امام ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، المجلد الاول (اليونان وروما) ، ص ٢٣٤ .
71 – Plato : Protagoras , in the Dialogues of plato , Tr . by Benjamin Jowett , the university of Chicago , 22 , ed , U. A. S, 1978 , [320] .
72 – Ibid , [320 , 321] .

٧٣ – افلاطون : الطيماوس واكريتيس ، ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة ، تحقيق وتقديم ، البير ريفو ، منشورات وزارة السياحة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٢٠٤ .

٧٤ – المصدر السابق ، ص ٢١١ .

٧٥ – المصدر السابق ، ص ٢١٦ وما بعدها .

76 – Plato : Timaeus , in the Dialogues of Plato , Tr , by Benjamin Jowett , [39 , 40] .

٧٧ – آرثر لفجوي : سلسلة الوجود الكبرى ، ترجمة ، ماجد فخري ، دار الكاتب العربي ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، نيويورك ، ١٩٦٤ ، ص ٩٦ – ٩٧ .

78 – Plato : Philebus , in the Dialogues of plato , Tr , by , Benjamin Jowett , [28] .

٧٩ – وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٢٨٨ .

٨٠ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٣٩١ .

٨١ – أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ، ص ١٩٣ .

٨٢ – كريم متى ، الفلسفة اليونانية ، ص ٢٥٨ .

83 – E. Zeller : outline of the History of Greek Philosophy , p. 26.

٨٤ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٣٩١ .

85 - E. Zeller : outline of the History of Greek Philosophy , p. 241.

٨٦ – برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٤٠٣ .

٨٧ – د. عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٣ .

٨٨ – د. أميرة حلمي مطر ، الفلسفة عند اليونان ، ص ١٤٣ .

89 – William Turner , History of Philosophy , Ginn and co , PRO . U.S.A. 1929 , P.169 .

٩٠ – د. أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ، ٤١٣ .

٩١ – وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٢٨١ .

٩٢ – د. عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ، ص ١٦٥ .

قائمة المصادر والمراجع

أ – المصادر والمراجع العربية :

- أرثر لفجوي : سلسلة الوجود الكبرى ، ترجمة ماجد فخري ، دار الكاتب العربي ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بيروت – نيويورك ، ١٩٦٤ .
- أرسطو طاليس : الكون والفساد ، ترجمة ، احمد لطفي السيد ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .
- أفلاطون : الطيماوس واكريتيس، ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة، تحقيق وتقديم ، البير ريفو ، منشورات وزارة السياحة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٨ .
- أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة زكي نجيب محمود ، راجعه الدكتور أحمد أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧ ، الكتاب الأول (الفلسفة القديمة) .
- د. علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ط١ ، ١٩٦٤ .
- عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٣، ١٩٥٩.

- فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة ، ترجمة ، امام عبد الفتاح امام ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، المجلد الاول (اليونان ورما) .
- فريدريك نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي ، تعريب ، د. سهيل القش ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣ .
- كريم متى : الفلسفة اليونانية ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧١ .
- ماجد فخري : تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩١ .
- ماكس شابيرو ، روداهندريكس : معجم الاساطير ، ترجمة ، حنا عبود ، دار علاء الدين، ط٣ ، ٢٠٠٨ .
- د. محمد غلاب : الفكر اليوناني أو الأدب الهيليني ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٢ ، ج ١ .
- مرسيا إيلياد : ملامح من الاسطورة ، ترجمة حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٥ .
- هزيود : الثيوجونيا : ترجمة أمين سلامة ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط١ ، ١٩٤٨ .
- هـ . فرانكفورت . هـ .أ. فرانكفورت ، جون .أ. ولسن. توركيلد جاكوبسن : ما قبل الفلسفة ، ترجمة جيرار ابراهيم جبرا ، مراجعة محمود الأمين ، مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر ، بغداد ، القاهرة ، بيويورك ، ١٩٩٦ .
- وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار القلم ، بيروت ، طبعة جديدة .

ب ـ المصادر والمراجع الاجنبية :

-Aristotle : Metaphysics in Richard Mckeon , introduction to Aristotle , Random House , U.S.A , 1947 .
-B.A.G. Fuller : A History of Philosophy , Henry Holt & co , Revised , ed , U.S.A , 1952 .
-Eduard Zeller : outline of the History of Greek Philosophy , Longmans Green AND co , London , 1886 .
-F.M. cornford : From Religion to Philosophy , Dover , (2004) unabridged republication of the edition originally Published by Harper & Row , Publishers , New York , 1957 .
-Hans . Georg . Gadamer : Heidgger's ways , Tr , John W. Stanley , state university of New York , U. S.A. 1994 .
-John Burnet : Early Greek Philosophy , forgotten Books , 2012 .
-Jonathan Barnes : The Pre Socratic Philosophers , Routledge & Kegan Paul , London , revised , ed , 1982 .
- Plato : Protagoras , in the Dialogues of plato , Tr. By Benjamin Jowett , the university of Chicago , U.S.A. 22nd , ed , 1978 .
-Plato : Timaeus , in the Dialogues of plato , Tr. By Benjamin Jowett , the university of Chicago , U.S. A, 22nd , 1978 .
-Plato : Philebus , in the Dialogues of plato , Tr . by Benjamin Jowett , the university of Chicago , U.S. A, 22nd , 1978 .
-Warner Rex : The Greek Philosophers , the new American Library , New York , 1958 .
-W.K.C. Guthrie , A History of Greek Philosophy , at the university press , Cambridge , Great Britain , reprinted , 1967 , vol , I.